" الإشارات الجسمية عند أعلام العربية "

د / صلاح محمد أبو الحسن مكي

المدرس بمعهد قراءا ت القرآن الكريم بالأقصر

" الإشارات الجسمية عند أعلام العربية "

تهدف هذه الدراسة إلى تأصيل ظاهرة الإشارات الجسمية في التراث العربي وتجليتها ؛ ذلك لأن العطاء الفكرى الذى ضمه التراث الأدبى والبلاغى واللغوى يظهر وعى الأجداد لمنزلة الإشارة فى السلوك الكلامى ودورها فى الكشف عن مقاصد المتكلمين واعتيادها لأغراض لغوية وبلاغية رفيعة فيما أنتجوه من نصوص أدبية رفيعة[١]

ويتضح ذلك عند أعلام العربية فى الأدب ، والبلاغة ، والتفسير ، وعلم الأصول ، وعلم الفراسة .

أولاً : الإشارة عند أعلام الأدب :

تنبه القدماء لتلك الظاهرة وتوقفوا عندها وعرضوا ؛ لبيان دروها المهم في عملية التواصل بشكل مختصر ، ومن أبرز هؤلاء :

١- أبو عثمان ؛ عمرو بن بحر الجاحظ :

لقد كان الجاحظ رائداً في اهتمامه بظاهرة الإشارات الجسمية ، وأول من تنبه لها من القدماء ، ولقد فطن إليها قبل المحدثين الذين اهتموا بها اهتماماً كبيراً ، لقد كان الجاحظ أول من لفت الأنظار إلى ظاهرة الإشارات الجسمية ، من خلال تصوره ، وإدراكه العميق لوظيفة اللغة ومفهومها كوسيلة ، أو نظام من أنظمة التواصل ، وذلك من خلال حديثه عن فنون القول مثل الخطابة والقصص والوعظ وما يتطلبها من مكملات مثل الإشارات الجسمية ، والنغمات الصوتية التي تقوم بدورها في الأداء الاتصالي[٢] .

(١) انظر بالتفصيل د/ كريم زكى حسام الدين : الإشارات الجسمية ، دراسة لظاهرة اعضاء الجسم في التواصل ص٣٤
(٢) السابق نفسه ص ٣٧

والإشارة عند الجاحظ هي : اصطلاح لجميع أشكال السلوكيات الحركية لتعبيرات الوجه والحركات الجسمية ، والأوضاع البدنية الدالة .

والإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغنى عن الخط ، وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة ، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها ، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح ، مرفق كبير ، ومعونة حاضرة ، في أمور يسترها بعض الناس من بعض ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس ، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة[١].

ويقول الجاحظ في موضع آخر " فأما الإشارة فباليد والرأس ، وبالعين ، والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان ، وبالثوب وبالسيف ، وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجرًا ، ومانعًا ، ورادعًا ، ويكون وعيدًا وتحذيرًا [٢].

يقول الجاحظ في الحيوان " فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر ولى الشفاه وتحريك الأعناق ، وقبض جلدة الوجه ، وأبعدها أن تلوى بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر ، ثم ينقطع عملها ، ويدرس أثرها ، ويموت ذكراها ، ويصير بعد كل شيء ، فضل عن انتهاء مدى الصوت ، ومنتهي الطرف ، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوط والكتب ، فأي نفع أعظم وأي مرفق أعون من الخط والحال فيه كما ذكرنا !! وليس للعقد حظ الإشارة في بعد الغاية[٣].

(١) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : البيان والتبيان ، ط٥ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥م جـ١ ، ص ٧٨
(٢) البيان والتبيين : جـ١ ، ص ٧٧
(٣) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، سنة ١٩٩٦ ، جـ١ ، ص ٤٨

لقد استمد الجاحظ نظرته تلك من تحليله للنصوص الشعرية ، مثل قول الشاعر عمر بن أبي ربيعه في دلالات الإشارة (بحر الطويل) :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعـــــور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

وقال آخر (بحر الطويل) :

وعين الفتى تبدى الذي في ضميره وتعرف بالنجوى الحديث المعمّسا[٤]

وقال الآخر (بحر البسيط) :

العين تبدى الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بُغض إذا كانـــا

والعيـــن تنطـــق والأفـــواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت ، فهذا أيضاً باب تتقدم فيه الإشارة الصوت والصوت هو آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزونا ولا منثوراً إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف ، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ، مع الذي يكون مع الإشارة من الدّل والشكل ، والتفتل والتثني ، واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور[١] .

يقول الجاحظ " إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة ، والتهيؤ للإطناب والإطالة وتلك سمة في خطباء العرب ، ومقصورة عليهم ، ومنسوبة إليهم ، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر[٢] بأيديهم إلفاً لها ، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها ، وعلى

(٤) المعمس : شديد مظلم ، عمْعِس : عمسًا ، عمسا ، عموسًا وعماسة (ابن منظور ؛ جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور - لسان العرب – دار المعارف – القاهرة – ١٨٨٢م ، عمس) ؛ جـ٤ ، ص ٣١٠٦.

(١) البيان والتبيين : ج١ ، ص ٧٨ ، ص ٧٩

(٢) المخاصر : جمع مخصرة ، وهي ما يختصره الإنسان فيمسكه بيده ، من عصا أو عكازة أو قضيب .

ذلك أشار النساء بالمآلى[٣] وهن قيام في المناحات ، وعلى ذلك المثال ضربن الصدور بالنعال" [٤].

والدليل على أنهم كانوا يتخذون المخاصر في مجالهم كما يتخذون القنا والقسي ، ما قاله الفرزدق (بحر البسيط) :

في كفـــه خيزُران ريحـــه عبـــق بكفٍّ أروعَ في عِرنينـــه شممُ
يغضي حياء ويغضي من مهابته فمـــا يكلـــم إلا حين يبتسم
إذ قال قال بمـا يهوى جميعـــهم وإن تكلم يوماً ساخت الكلـــم
يكـــاد يمسكه عرفـــان راحتـــه ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم[٥]

وقال الشاعر قولاً فسر فيه ما قلنا ، قال (بحر الطويل) :

مجالسهم خفض الحديث وقولهم إذا ماقضوا في الأمر وحى المخاصر[٦]

ولم يكتف الجاحظ ببيان دور الإشارة ، ووظيفتها في الكلام ، بل يجعلها من علامات البلاغة قائلاً : " قيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة[٧] ".

ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعاني بكلام وجيز يغنى عن التفسير باللسان ، فالإشارة باليد وبالرأس من تمام حسن البيان باللسان

(٣) المآلى : جمع مئلاة وهى خِرقة تمسكها المرأة عند النوح فى السلم والحرب .
(٤) البيان والتبيين : جـ ٣ ، ص ١١٧
(٥) السابق نفسه : جـ٣ ، ص١١٧
(٦) السابق نفسه : جـ ١ ، ص ٣٧٠
(٧) السابق نفسه : جـ ١ ، ٨٨

* وأما القول في العقد ، وهو الحساب دون اللفظ والخط فالدليل على فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به ، قول الله عز وجل ﴿ الرَّحمنُ علَّمَ القُرآنَ خَلَقَ الإنسانَ علَّمهُ البيَان الشَّمْس والقمرُ بِحُسْبان ﴾ (سورة الرحمن : من آية ١ : ٥)

وقال جل وعز : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ (سورة يونس : آية ٥) ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ ﴾ (سورة الإسراء : آية ١٢)

والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة ، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة[١] والعد على الأصابع عرف منذ القدم في حياة الناس ، وكذلك عملية التسبيح بالأصابع أعظم دليل على منافع العقد .

ومن الشواهد السابقة يتضح أن الجاحظ هو واضع البذرة الأولى لنظرية السلوك الاتصالي الحركي في تراثنا العربي بصفة خاصة ، وفي التراث الإنساني بوجه عام[٢].
فإنه قد وافق علم الحركة الجسمية في الآتي :

١- إذا كان للنطق أعضاء كاللسان ، والأحبال الصوتية ، فللحركة الجسمية أعضاء كالرأس والعينين والفم واليدين والرجلين .

٢- إن الحركة قد تؤدى بجارحة واحدة كأن نشير بالسبابة لتحديد جهة ما ، وقد تؤدى باشتراك جارحة ، أو أكثر مع شيء خارج عن الجسم كأن يجذب الطفل كم رداء أمه لتلتفت إليه .

(١) البيان والتبيين : جـ١ ، ص ٨٠
(٢) انظر د/ محمد العبد : العبارة والإشارة ، دراسة في نظرية الاتصال ، القاهرة ، سنة ٢٠٠٧ ، ط ٢ ، ص ١٤٨

٣- لكل حركة دلالة كما أن لكل لفظ دلالة ، فقد تفيد الحركة التهديد والوعيد كرفع السيف والسوط.

٤- تنقسم الحركات الجسمية باعتبار صلتها بالكلام إلى حركات مصاحبة للكلام وتأكيده وحركات تحل محل الكلام في مواقف بعينها .

٥- للحركة كما للفظ شكل خاص وبناء محدد ، تتعاقب العناصر المكونة لها بترتيب معين .

٦- للحركة أنواع ، وطبقاتها متعددة ، ومن أنواعها : حركة ذات دلالة رمزية وهي التي تحل محل الكلام ، وحركة لتأكيد الكلام وزيادته وضوحاً ، وحركة وصفية .

٧- الحركة تستخدم بدلاً من الكلام حين تكون المسافة بين المتكلم والمخاطب كبيرة بحيث لا يسمع الصوت ، أو عند حدوث ضجيج ما يحول دون سماع الصوت .

٨- الحركة مهمة لفن الخطابة والدليل أن الخطيب الذي يكثر من الحركة أثناء خطابه يؤثر على سامعيه[1] .

٢- أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء من أدباء القرن الثالث

يقول أبوالطيب الوشاء :

" اعلم أن الظرف ليس بمستغنى عنه ، ولا هو مما يخلُ منه ولا يعنف فيه صاحبه ولا ينفذ عليه طالبه بل هو أنبل ما استعمله العلماء وصبا إليه الأدباء ، وربما تكلفه قوم ليسوا من أهله ، وللمتكلف علامات تظهر في حركاته وتبين في لحظاته لا يسترها بتصنعه ولا تغيب بتستره ، وأن المطبوع على الظرف ليشهد له القلب عند معاينته بحلاوته ، وتسكن النفس عند لقائه إلى مجالسته وتصبو إلى محادثته ، وترتاح إلى مشاهدته ، وهو بيّن في شمائله ، ظاهر في خلائقه ، بيّن في منطقه ، غير مستتر عند صمته ، دلائله

(١) دراسات في علم اللغة : النهضة العربية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٦ م، ص ١٠١ – ١٠٥

واضحة فى مشيته ، وفى زيه ولفظه يستدل عليه بظاهر حركة الملاحة دون اختيار باطن الحلاوة "[٢] .

ويكمل لنا الوشاء ملامح صورة الظرفاء من خلال حركاتهم وهيئتهم الجسمية التى يتميزون بها يقول : " فهم لا ينتجعون ولا يتبصقون ولا يتثاءبون ولا يتجشئون[٣] ولا يتمطون ؛ لأن ذلك عيب عن الظرفاء مكروه عند العلماء وهم لا يوقعون أكفهم ولا يشبكون أصابعهم ولا يمدون أرجلهم ولا يحكون أجسامهم ولا يمسون آنافهم خاصة إذا كان أحدهم بين يدى خليله أو حبيبه أو من يحتشمه وليس من زيهم الإقعاء فى الجلسة ولا السرعة فى المشية ولا الالتفاف فى الطرق .. "[١]

٣- ابن حزم الأندلسى : أبو محمد بن على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) :

يفطن ابن حزم إلى دور الإشارات الجسمية فى التواصل بين العاشقين فيعتبر كتابه : (طوق الحمامة فى الألفة والأُلاف) ، من أهم المصادر التى اهتمت بدراسة عاطفة الحب أو العشق بين الرجل والمرأة يقول ابن حزم فى الباب الثامن من دراسته تحت عنوان " التعريض بالقول " إن أهل الوصل والمحبة يلجئون للتعريض إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات[٢] .

وفى الباب التاسع تحت عنوان " باب الإشارة بالعين " ابن حزم يهتم بصفة خاصة بإشارات العين ، حيث يتلو التعريض بالقول إذا وقع القبول والموافقة ، والإشارة بلحظ العين " ويأخذ فى عد المعانى أو الدلالات المختلفة للإشارة بالعين قائلاً : " الإشارة بلحظ العين ، يقطع

(٢) أبو الطيب الوشاء : الظرف والظرفاء ، ط١ ، عالم الكتب ، بيروت ، ص ١٣٢٤ .
(٣) الوشاء : الصوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة
(١) الظرف والظرفاء : ص ١٢٠
(٢) ابن حزم : طوق الحمامة ، تحقيق : الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، ط٦ ، ص ٥٢

به ويتواصل ويوعد ويهدد ، وينتهر ويبسط ، ويؤمر وينهى ، وتضرب به الأوعاد وينبه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى[٣] .

ويضيف ابن حزم قائلاً : " ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا بالأقل منه وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى :

والإشارة بمؤخر العين الواحدة : نهى عن الأمر ، وتقتيرها : إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها : دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها : آية الفرح .
والإشارة إلى إطباقها . دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة : تنبيه على مشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المسوق بسرعة : شاهد المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام . وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة "[١].

ويؤكد ابن حزم الدور المهم للعين فى التواصل قائلاً : " واعلم أن العين تنوب عن الرسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس والعين أبلغها وأصحها دلالة ، وأوعاها عملاً وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ، ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات وقد قيل ليس المُخبرُ كالمعاين[٢] .

٤- أبو عبدالله محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسى) (ت : ٧٤٥ هـ)

---

(٣) السابق نفسه : ص ٥٤
(١) طوق الحمامة : ص ٥٤
(٢) السابق نفسه : ص ٥٤

لقد فطن أبوحيان الأندلسى إلى ظاهرة الإشارات الجسمية ودورها فى الكلام وذلك من خلال أهم وأعظم مؤلفاته المسمى (بالبحر المحيط) حيث يعتبر هذا المؤلف من أهم المصادر فى تفسير القرآن الكريم ونجده يشير إلى تلك الظاهرة بين الحين والآخر خلال تفسيره لكثير من آيات القرآن ، ويبين دلالات هذه الإشارات الصادرة عن الأنبياء والصحابة المعاصرين للوحى ، مثال ذلك تفسير لقوله تعالى : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ ﴾ (سورة آل عمران : آية ٤١) .

يقول أبو حيان : الرمز هنا : تحريك الشفتين قاله مجاهد ، أو إشارة باليد والرأس قاله الضحاك والسدى ، أو إشارة باليد قاله الحسن ، أو إيماء قاله قتادة ، والإيماء : هو الإشارة لكنه لم يعين بماذا أشار ، وروى عن قتادة إشارة باليد أو إشارة بالعين ، وروى ذلك عن الحسن ، وقيل : الرمز : الكتابة على الأرض ، وقيل : الإشارة بالإصبع المسبحة ، وقيل : الرمز : الصوت الخفى ، وفى قوله " إلا رمزاً " دلالة على أن الإشارة تتنزل منزلة الكلام ، وذلك موجود فى كثير من السنة ، ففى الحديث : سأل النبى " : السوداء فقال لها :

أين الله ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : أعتقها فإنها مؤمنة[1] ، وقد ذهب الفقهاء إلى أن الإشارة ونحوها فى حكم الكلام فى الإيمان ونحوه "[2] .

يصف لنا أبو حيان جانباً من السلوك الإشارى للجماعة العربية من خلال بعض الآيات التى تصور الإشارات الجسمية ومن ذلك قوله تعالى﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ (سورة إبراهيم : آية ٩) قال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ، قال أبو صالح : لما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى

(١) النووى ؛ محيى الدين زكريا ابن شرف النووى : صحيح مسلم بشرح النووى ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٤م، جـ٣ ، ص٢٠ .

(٢) أبو حيان الأندلسى ؛ محمد بن يوسف بن على: التفسير (بالبحر المحيط) ، ط٢ ، الرياض ، ١٩٧٠م ، جـ٢ ، ص ٤٥٢.

أفواههم أن اسكت تكذيباً له ورداً لقوله واستبشاعاً لما جاء به ، وقيل : ردوا أيديهم فى أفواههم ضحكاً واستهزاءً كمن غلب عليه الضحك فوضع يده على فيه ، وقيل : أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم : إنا كذبنا بما أرسلتم به ، قال ابن يزيد : عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، والعض بسبب مشهور بين البشر ، قال الشاعر :

لو أن سلمى أبصرت تخددى ودقة فى عظم ساقى ويـــدى
وبُعد أهلى وجفـــــاء عوّدى عضت من الوجد بأطراف اليد[٣]

٥- أبوبكر محمد بن داود الأصفهانى (ت : ٢٧٩)

لقد فطن ابن داود الأصفهانى قبل ابن حزم إلى دور الإشارات الجسمية فى التواصل بين المحبين والعلاقة بين الرجل والمرأة فجاء فى الباب الحادى عشر من كتابه المشهور (الزهرة) بعشرات الأبيات التى تصور السلوك العينى المتمثل فى الإشارات المختلفة التى ترسلها عين الحبيب والمحبوب ومن ذلك قول مسلم بن الوليد[٤]

جعلنا علامـــات المـــودة بيننـــا دقائق لحظ هن أخفى من السحر
فأعرف منها الوصل فى لين طرفها وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

نجد إشارات العين المتبادلة بين المحبين تكون فى مواقف الخوف والخشية من الأهل والرقباء ومن ذلك قول الشاعر[٥] :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق كلامـــا تكلمنـــا بأعيننـــا سراً
فنقضى ولم يعلم بنا كل حاجـــة ولم نظهر الشكوى ولم نهتك السترا

(٣) الإشارات الجسمية : ص ٩٥
(٤)السابق نفسه : ص ٩٠
(٥) السابق نفسه : ص ٩١

ونجد الإشارات الجسمية بين المحبين تقوم به أعضاء جسمية أخرى مثل الحاجب والفم واليد ومن ذلك قول الشاعر :

بنان يد تشير إلى بنـــان تجاوبتا وما يتكلمـــان

جرى الإيماء بينهما رسولا فأعرب وحيه المتناجيان

ثانياً : الإشارة عند أعلام البلاغة :

١- أبو هلال العسكري (ت : ٣٩٥ هـ) :

لقد كان أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري من أوائل من تنبهوا إلى ظاهرة الإشارات الجسمية لدى البلاغيين في كتابه الصناعتين في الكتابة والشعر يقول " فالإشارة أن يكون اللفظ القليل مشاراً به إلى معان كثيرة ، بإيماء إليها ، ولمحة تدل عليها ، وذلك كقوله تعالى ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَ ﴾ (النجم : ١٦) ، وكذلك قول الناس : لو رأيت عليا بين الصفين فيه حذف وإشارة إلى معانٍ كثيرة " (١)

٢- ابن رشيق القيرواني (ت : ٤٥٦ هـ):

يقول ابن رشيق : " والإشارة من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى ، وفرط المقدرة وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملاً ومعناه بعيد من ظاهر لفظه " (٢) .

(١) العسكري : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري : الصناعتين في الكتابة والشعر ، تحقيق محمد علي البيجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة ١٩٧١ ، ص ٣٥٨.

(٢) القيرواني : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق د/ البدوي ، ط ١ ، مكتبة الخانجي ، ٢٠٠٠ م ، القاهرة ، ص ٤٩٦.

من الإشارات المصحوبة ، وهي عند أكثرهم معيبة كأنها حشو ، واستعانة على الكلام نحو قول (أبي نواس) :

قال إبراهيم بالما ل كذا غرباً وشرقاً

ولم يأت بها أبو نواس حشواً ، ولكن شطارة وعبثاً بالكلام ، ويمكن أن نقول بياناً وتثقيفا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه (وكيف بك في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا ، فكانوا هكذا ؟ وشبك بين أصابع يديه)[١] وليس هناك أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبعد منه كلاماً عن الحشو والتكلف[٢].

ولما أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد قام رجل من ذي الكلاع ، فقال : هذا أمير المؤمنين وأشار إلى معاوية ، فإن مات فهذا ، وأشار إلى يزيد فمن أبى فهذا ، وأشار إلى السيف ، ثم قال :

معاوية الخليفة لا نماري فإن يهلك فسائسنا يزيد

فمن غلب الشقاء عليه جهلاً تحكم في مفارقه الحديد

وقد جاء (أبو نواس) بإشارات أخر لم تجر العادة بمثلها ، وذلك أن " الأمين بن زبيدة قال له مرة : هل تصنع شعراً لا قافية له ، قال نعم وصنع من فوره ارتجالاً : [٣]

ولقد قلت للمليحة قولي من بعيد لمن يحبك : (إشارة قبلة)

فأشارت بمعصم ثم قالت من بعيد خلاف قولي : (إشارة لالا)

فتنفست ساعة ثم إني قلت للبخل عند ذلك : (إشارة امش)

(١) أبو داود : سليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني : سنن أبي داود ، ط١ ، دار ابن الجوزي ، ٢٠١١م ، باب (الأمر والنهي) رقم (٤٣٤٢) .
(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده : ج ١، ص ٥٠٨ .
(٣)السابق نفسه : ج ١ ، ص ٥٠٩ .

فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه ، وحسن تأتيه وأعطاه الأمين صلة شريفة " (٤).

٣- ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) :

تحدث ابن سنان الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة) عن الإشارة يقول :

" لقد قسم البلاغيون دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام : المساواة ، والتذييل ، والإشارة ، فالمساواة أن يكون المعنى مساوياً للفظ ، أما التذييل وهو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى ، وفاضلاً عنه ، والإشارة أن يكون المعنى زائدًا على اللفظ أي موجزًا يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة وقالوا إن التذييل يصلح للمواقف الجامعة ، وبحيث يكون الكلام مخاطباً به عامة الناس ، ومن لا يسبق ذهنه إلى تصور المعاني .

والإشارة تصلح لمخاطبة الخلفاء والملوك ، ومن يقتضى حسن الأدب عنده التخويف في خطابه وتجنب الإطالة فيما يتكلف سماعه ، والمساواة التي هي الوسط بين هذين الطرفين اللذين هما الملوك وعوام الناس" (١).

٤- السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) :

تحدث السكاكى عن الإشارة باسم الكناية يقول : الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة ، وإن كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضاً ، وإلا فإن كان بينهما وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في : كثير الرماد وأشباهه ، فالمناسب أن تسمى تلويحًا ؛ لأن التلويح هو : أن تشير إلى غيرك عن بُعد

وإلا فإن كان فيه نوع خفاء فالمناسب أن تسمى رمزًا ؛ لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية قال :

---

(٤) السابق نفسه : جـ١ ، ص ١١٠ .

(١) ابن سنان الخفاجي ؛ محمد عبدالله : سر الفصاحة ، تحقيق / على فودة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، سنة ١٩٧٢م ، ص ١٩٦ . وأيضًا : سر الفصاحة ، شرح وتصحيح د / عبدالمتعال الصعيدى ، مطبعة محمد على صبيح واولاده ، القاهرة ، سنة ١٩٦٩م ، ص ١٩٩

رمزتْ إليّ مخافة من بعلها من غير أن تُبدى هناك كلامها

وإلا فالمناسب أن تسمى إيماء وإشارة كقول أبى تمام ، يصف إبلا :

أبيْن فما يزرن سوى كريم وحسبُك أن يزرن أبا سعيد

فإنه فى إفادة : أن أبا سعيد كريم ، غير خاف وكان إطلاق اسم الإيماء والإشارة عليها مناسباً[٢].

٥- بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ) :

يقول بهاء الدين السبكي تحت باب الكناية " والكناية هي أن يكون المقصود بالكناية الوصف والنسبة معاً ، كما يكثر الرماة في ساحة عمرو ، وقد قسم الكناية إلى خمسة أقسام تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وإيماء ، وإشارة ، وإنما عدل عن تنقسم إلى تتفاوت إشارة إلى أن رتب هذه الأقسام في الكناية متفاوتة في القوة والضعف ، والكناية أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له والتعريض أن يذكر شيئاً يدل على شيء لم يذكره " .

ثم قال : (والمناسبة للعرضية) إن الكناية المسوقة لموصوف غير مذكور " التعريض لغيرها أي والمناسب للكناية غير العرضية " وإن كثرت الوسائط بينهما وبين المكنى عنه إطلاق اسم (التلويح) ؛ لأن (التلويح) إشارة للشئ من بعد (وإن قلت) إن الوسائط بين الكناية والمكنى عنه (مع خفاء) أي نوع من الخفاء فالمناسب لها (الرمز) وذلك نحو " عريض القفا " كناية عن الأبله ، ووجه مناسبته أن الرمز والإشارة إلى قريب منك خفية بالشفتين أو الحاجب أو العين " قوله " وإلا " أي وإن قلت الوسائط ولم يكن نوع من الخفاء " فالمناسب أن يسمى بالإيماء أو الإشارة" [١].

(٢) السكاكي ؛ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد : مفتاح العلوم ، المكتبة العلمية بيروت ، لبنان ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٥

(١) بهاء الدين السبكي ؛ احمد بن علي بن عبد الكافي : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت ، ج٤ ، ص ٢٦٠ – ٢٦٣ .

٦- ابن يعقوب المغربي (ت ١١١ هـ) :

يتحدث ابن يعقوب عن الإشارة تحت باب الكناية أيضاً ، وأشار إلى تنويع السكاكي للكناية بقوله : قال السكاكي " الكناية تتفاوت أي تتنوع إلى (تعريض ، وإلى تلويح ، وإلى إشارة وإيماء) أي تتفاوت إلى ما يسمى بهذه التسامي واختلف في وجه عدوله عن أن يقال تنقسم إلى قوله تتفاوت فقيل : إنما عبر بالتفاوت دون الانقسام ؛ لأن هذه الأمور لا تختص بالكناية ؛ لأن التعريض يكون كناية ومجازاً ، والتلويح والرمز والإشارة يطلق على كل معنى غير الكناية اصطلاحاً ولغة[٢] .

ثالثاً : الإشارة عند أعلام اللغة :

تنبه القدماء لتلك الظاهرة لكنهم لم يتوقفوا عندها طويلاً ، كما فعل الجاحظ ، إنما عرضوا لها لبيان دروها المهم في عملية التواصل بشكل مختصر ، ومن أبرز هؤلاء :

١- ابن جني (ت ٣٩٢ هـ):

الذي استعمل مصطلح حكاية الحال للتعبير عن الإشارة الجسمية قائلاً :

(أولا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب صاحبه ويدعم تصويره له في نفسه استعطفه ليقبل عليه فيقول له : يا فلان أين أنت ؟ أرني وجهك . أقبل عليّ أحدثك أما أنت حاضر يا هناه فلو كان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلف القائل ، ولا تكلف صاحبه الإقبال عليه ، والإصغاء إليه وعلى ذلك قال الشاعر :

العين تبدى الذي في نفس صاحبها من العداوة أو ود إذا كانا

(٢) ابن يعقوب المغربي ؛ أبو العباس أحمد بن محمد : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ضمن شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت ، ج٤ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٧٠ .

وقال الهذلي (أبو خزاش خويلد بن مرة) :

رقوني[١] وقالوا : يا خويلد لا تُرعْ فقلت : وأنكرت الوجوهَ : هم هم

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلاً على ما في النفوس ، وعلى ذلك قالوا : (رب إشارة أبلغ من عبارة)[٢].

ويستشهد ابن جني على أهمية الإشارة في بيان حال المتكلم في موضع آخر بحركة جسمية تعبر بها المرأة عن الإنكار أو التعجب ، ومن ذلك ما جاء من قول إحداهن على لسان زوجها نعيم أبوالحارس بن يزيد السعدى :

تقول وصكت وجهها بيمينها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس

يقول ابن جني : فلو كان حاكياً عنها : أبعلي هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صك الوجه ؛ لأعلمنا بذلك بأنها كانت متعجبة منكرة لكنه لما حكى الحال فقال : وصكت وجهها علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها ، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها .

ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين ، ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله : وصكت وجهها لم نعرف حقيقة تعاظم الأمر لها[٣] .

(١) رقوني : سكنوني بالرقية وقالوا لي : لا بأس عليك

(٢) ابن جني : أبو الفتح عثمان : الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ط١ ، ج١ ، ص٢٤٦.

(٣) السابق نفسه : ج١ ، ص٢٤٨.